حديث المال

بقلم ابراهيم عبد القادر المازني

جلسنا ثلاثة من الاخوان نتحدث عن المال وكيف ينال — فقد مات زخاروف رجل الأسرار أو الظلام كما يسمونه وصار ذكره على كل لسان ولهجت الصحف بملايينه وأعماله الصحيحة أو الموهومة وأخذ عنها الناس وراحوا يلغطون. وأحسب ان لو كان زخاروف حيا واستطاع أن يسمع ما يروى عنه ويعزى اليه لأذهله ذلك ويكفي أنه مامن ثورة أو حرب شبت في الخمسين سنة الأخيرة الا وهو فيما يقال مضرم نارها

وقلت لصديق: «أما أنا فلست أعرف وسيلة للغنى الا هذه — أفتح عيني في الصباح وأدس يدي تحت الوسادة لاتناول الساعة وأنظر الى وجهها فاجد مكانها كوما عاليا من الأوراق المالية الكبيرة. وعلى ذكر هذه الأوراق الكبيرة أقول — ولا تخر — إني ما رأيت ورقة بمائة جنيه الا مرة واحدة في حياتي.. أم تراها كانت بخمسين فقط.. والله ما أدري.. الحاصل.. أعطيتها لأبدلها وآخذ منها قدرا معينا وأرد الباقي فوضعتها في جيب البنطلون وأبقيت كفي عليها خوفا من النشل وذهبت الى البنك — المصرف كما لا يسمى — ولا أطيل. وحسبي أن أقول ان الرجل كان ينظر الى نظرة من تحدثه نفسه بأنه يحسن حجزي حتى تجيء «النيابة»... وصار معي عدد كبير من الورق فوضعت حقي في جيب والباقي في جيب آخر اتقاء للاختلاط والحاجة الى إعادة العد والحساب. وقد تعلمان كرهي لهذا الحساب أو جهلي به على الأصح. وجاء الليل — وكنت أعمل في ذلك الوقت في جريدة صباحية، فانا أعمل بالليل وأنام بالنهار — وتذكرت اني على موعد مع صديق في الساعة الحادية عشرة وكنت جائعا فقلت أذهب الى محل جديد في شارع عماد الدين وآكل لقمة أو اثنتين من «السندويتش» ثم أذهب الى موعدي. وكنت قد وضعت الأوراق في المحفظة — على خلاف عادتي — ولم يكن معي من النقود الصغيرة غير قرش واحد. وحدثتني نفسي وأنا آكل انه يحسن ان أشتري شيئا من هذه الفاكهة فان منظرها مغر، فاخرجت جنيها ولكن الزحام كان شديدا فكادت روحي تزهق ورأيت أن الأمر سيطول فدسست الجنيه في جيبي وانصرفت ولقيت صاحبي على «القهوة»، وعدت الى البيت فأحسست وأنا أخلع ثيابي ان «الجاكته» خفيفة فنظرت فيها فاذا المحفظة قد طارت. أي والله. قطع النشال الجيب بسكين أو موسى أو لا أدري ماذا وأخذ المحفظة...

وعدنا بعد هذه الذكرى الأليمة الى زخاروف والملايين فقال أحد الصديقين: «لماذا لا نرى في الشرق ناسا يصبحون أصحاب ملايين كما يحدث في الغرب كثيرا...»

فقال ثالثنا: «ان الغنى العريض الواسع يستفاد من الصناعة والتجارة لا من الزراعة فانها محدودة وكل عمل لا يقبل التوسيع والنماء المطردين لا يمكن ان تجيء منه ملايين ولا مايقرب منها»

فقلت: «ولا تنس ياصاحبي ان الخطار في حكم المعدوم في الشرق. ولا بد من المغامرة لطالب الثروة الكبيرة السريعة. ولعل إخواننا العرب أعظم منا جرأة واقداما وأكثر استعدادا للمغامرة. والحق أن المصريين اطلب للراحة والدعة والاطمئنان على الرزق. وهم يرضون بالقليل اذا كفل لهم الاطمئنان وقد كانوا الى بضع سنوات يعدون صاحب التجارة أحط مقاما من صاحب الزراعة وأحسب ان هذا لأن رزق الزارع مكفول ولكن الرزق من التجارة على كف عفريت. واسمعوا هذه الحكاية: لما عدت في العام الماضي من العراق جاءني صديق حميم وذكر لي ان له صاحبا يشتغل بصناعة الجلود وانه يرجو مني المعونة ليحتكر جلود الأضاحي في موسم الحج في الحجاز فقلت له: إني أعرف أن الحكومة العربية تكره الاحتكارات ولا ترضى أن تظلم رعاياها على نحو ما يبغي صاحبك ثم إني لا أستطيع أن أستغل علاقتي بهؤلاء القوم، ولكني أشير بما هو خير من ذلك وأجدى على صاحبك إذا كان عاقلا.. واقترحت عليه أن يؤلف صاحبه شركة مصرية عراقية لانشاء مصنع للجلود ومدبغة في بغداد وقلت له: إني أستطيع بمساعدة إخواني في مصر والعراق أن أقنع جماعة من العراقيين بالدخول في هذه الشركة. ولصاحبك أن يدخل فيها بالقدر الذي هو في طوقه. والجلود في العراق وفيرة ورخيصة، وجلبها من البلاد العربية إلى بغداد أسهل وأقل

كلفة من جلبها إلى مصر، أما الأسواق فعديدة . فهناك أسواق العراق نفسها - والقوم هناك وطنيون عمليون يؤثرون صناعات بلادهم، والحكومة عظيمة التشجيع لها ولا أعتقد أنها تتردد فى أخذ حاجة جيشها من هذا المصنع إذا أنشىء ثم ان هناك أسواق جزيرة العرب وأسواق فلسطين وأسواق الشام وفى هذه البلاد كلها يفضل الرجل مصنوعات بلاده فالمشروع لا شك فى حسن عائدته ولاخوف من الخسارة فيه وأنا مستعد أن أطلق الصحافة والأدب وأعمل معه وأقوم له بكل ما يستدعيه الحصول على رأس المال أولا واستيراد الجلود من الجهات المختلفة وتصريف المصنوعات فى أسواق الجزيرة والعراق وفلسطين وسوريا، فاقترح هذا على صاحبك وانظر ماذا يرى . . ووقف الأمر عند هذا الحد لأن فى المشروع مخاطرة بالمال !! . ولست أدرى أين المخاطرة ولكن هذا ما كان . وهكذا ضاعت على فرصة حسنة للتحرر من رق الصحافة والأدب . »

فسألنى أحدهما : « أو تكره الصحافة والأدب ؟ »

« قلت : لا أكرههما ولكن أعمل فيهما كالحمار ولا أفيد منهما إلا العناء . وإذا وسعنى أن أهجرهما إلا ما هو خير وأجدى فلماذا لا أفعل ؟ وصدقنى حين أقول لك إنى لا أكف عن التفكير فى وسيلة للنجاة منهما . وقد خطر لى أن أتخذ جراجاً « ولكن الجراج » لا يكون إلا محدوداً وأنا أريد عملا يحتمل التوسيع على الأيام . وخطر لى أن أتخذ مطبعة ولكنى رأيت أن المنافسة الشديدة بين أصحاب المطابع توشك أن تؤدى إلى خرابهم جميعاً . وخطر لى أن أكون بائع « طعمية » وهذا لا يتطلب رأس مال يستحق الذكر، واقتنعت بأن هذا خير ما يمكن أن أصنع وأنه أحسن وجه للخلاص من الصحافة، فذهبت أبحث عن محل صالح ولكنى كنت كلما عثرت على واحد واهتديت إلى مكان يمكن أن تروج فيه هذه البضاعة أجد أن غيرى قد سبقنى . . ولكنى لم أقنط من رحمة الله . . وما زلت أرجو أن أوفق إلى عمل صالح غير هذا الأدب الذى لا فائدة منه لأحد »

فسألنى ثانيهما : « هل تتكلم جاداً ؟ »

قلت : « أى والله . . لقد قرأت كل ماوسعنى أن أقرأ وكتبت كل مادخل فى طوقى أن أكتب، فهل أفدت إلا الغرور والنفخة الكذابة والصيت الفارغ . . وإلا العداوات والخصومات التى لا داعى لها . . لا يا سيدى . . وإنى لمستعد أن أنزل لك عن نبوغى وعبقريتى وخيالى الخصب ونشاطى الجم ولا أطلب إلا دكاناً صغيرا أقلى فيه « الطعمية » فى سيدنا الحسين أو السيدة زينب أو فى بولاق . . أقف فيه وأمامى المقلاة وإلى جانبى الزيت - زيت الزيتون من فضلك - والفول المدقوق وعلى ثوب أبيض نظيف وورائى الموائد مصفوفة وعليها الأباريق والأكواب . وأصص الزهر هنا وهناك . والأرض مفروشة بالرمل الأصفر، فانى أريد أن أرقى صناعة « الطعمية » وأجعل منها فناً . . نعم، خذ أدبى كله وخلودى أيضا إذا كانا يستحقان شيئاً واعطنى هذا الدكان الصغير وزرنى بعد ذلك وشرفنى بالأكل عندى وعلى موائدى الأنيقة الجميلة واحسدنى يومئذ »

وقنا صامتين لأن كلامى هذا لم يعجبهما . . ولو أعجبهما لرجوت أن أقنعهما بهذه المبادلة . . ولكن لا بأس . . لا بأس . . ولا بأس أيضاً فلن أعدم صناعة أخرى أهتدى إليها فى يوم من الأيام . والعمر الطويل يبلغ الأمل كما تقول العامة فى أمثالها الحكيمة التى هى عصارة التجارب الانسانية على الدهور

ابراهيم عبد القادر المازنى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الرابعة

ترجمها : احمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشا